العرب
الجمعة 2019/11/01
السنة 42 العدد 11515

مأساة العيش والموت في زمن القتل

حالة حصار في الفيلم التسجيلي السوري «الكهف»

بعد فيلمه ذائع الصيت "آخر الرجال في حلب" (2017)، الذي حصل على عدد من الجوائز العالمية كما رشح للأوسكار، عاد المخرج السوري فراس فياض إلى موضوعه الأثير في فيلمه التسجيلي الجديد "الكهف"، الذي شاهدناه مؤخرا ضمن عروض مهرجان لندن السينمائي.

الطبيبة تتأمل مظاهر الدمار في المنطقة

أمير العمري
كاتب وناقد
سينمائي مصري

مثل "آخر الرجال في حلب" يتناول فيلم "الكهف"، للمخرج السوري فراس فياض، مأساة العيش في زمن القتل، في منطقة الغوطة الشرقية، التي تعتبر من أكثر المناطق تعرضا لبطش قوات النظام السوري المدعومة من جانب الطيران الحربي الروسي، وهي لا تبعد سوى مسافة قصيرة عن العاصمة السورية دمشق. وقد تعرضت تلك المنطقة لحصار قاس من جانب قوات النظام استمر لخمس سنوات، حيث حوصر أكثر من 400 ألف شخص قتل منهم من قتل وأصيب من أصيب، وتشرّد الآلاف بعد أن هُدّمت منازلهم.

الفيلم لا يهتم كثيرا بالتركيز على "حالة الحصار" بشكل عام، لكنه يركز على تجربة شديدة الخصوصية في المقاومة، في التمسك بالرغبة في العيش، في التغلب على أعتى ظروف الحرب الشرسة المدمرة التي حوّلت المنطقة إلى خرائب وأطلال. هذه التجربة هي تجربة الصمود داخل مستشفى، أبقى عليها مجموعة من المتطوعين من الأطباء والطبيبات ومساعديهم، بذلوا جهودا هائلة تحت ظروف مستحيلة لإنقاذ حياة الأطفال.

وتعود الوقائع اليومية، التي يرصدها الفيلم، إلى أوائل عام 2018. فمع اشتداد الحصار أصبح العثور على المواد الغذائية من أكثر الأمور التي تشغل الجميع. الأطفال يعانون من سوء التغذية، والكبار والصغار يأكلون كل ما يستطيعون الوصول إليه.

ومع تعرّض المستشفى الوحيد باستمرار للقصف الجوي الشديد، لجأت مجموعة من الأطباء والممرضين والمتطوعين ومن ساعدوهم من العمال القادرين، إلى حفر نفق تحت أرض المستشفى، خصّصوه لاستقبال الحالات الطارئة، خاصة الأطفال الجرحى والمصابين، وأطلقوا عليه "الكهف". العاملون في المستشفى انتخبوا طبيبة الأطفال الشابة "أماني"، لتصبح مسؤولة عن إدارة المستشفى.

في الجانب الأكبر منه يخصّص الفيلم لسرد قصة أماني؛ آمالها وأحلامها وتطلعاتها، وكيف تتعامل مع الموقف الصعب الذي تفرضه ظروف الحصار، وكيف تمكّنت من إدارة العمل في "الكهف" في تلك الظروف.

إنها تبدو في التزامها بارتداء الحجاب الثقيل تغطي به رأسها وتحجب جبهتها تماما ورقبتها، أقرب إلى التزمت، ولكنها لا تختلف عن سائر الفتيات والنساء اللاتي يظهرن في الفيلم، فرغم التزمت الظاهري، فهي ترفض النظرة الذكورية السائدة المتخلفة، التي تتبدى في موقف أحد الرجال عندما يأتي للبحث عن دواء لزوجته فتعتذر له أماني بعدم توفر الأدوية في المستشفى، لكنه يثور ويطلب مقابلة المدير- الرجل، وعندما تخبره أنها المديرة ولا يوجد غيرها، يحتج ويقول إن المرأة مكانها البيت لرعاية الأبناء، ولا يجب أن تعمل!

هي ترفض في حديثها إلى الكاميرا، أي إلينا مباشرة، هذا التعنت الذكوري، وتربطه بالقهر العام الذي يمارسه النظام. لكنها في الوقت نفسه تخضع لتقاليد يفرضها الرجال، وهو التناقض الذي لا يهتم الفيلم بتفسيره ولا يجده أصلا تناقضا، بل ولا يكشف لنا عن الموقف السياسي لأماني وغيرها، فالفيلم يقول إن هدفها الوحيد هو العمل، أي ممارسة المهنة التي تعلمتها، ولكنها أيضا ترفض النظام القمعي، ولا شك أن لديها وجهة نظر كاملة في البديل الذي لا تفصح عنه، باستثناء الحديث العام عن الحرية.

بورتريه شخصي

صحيح أن هناك الكثير من مشاهد الدمار، وتصوير حي مباشر للغارات التي يشنها الطيران الروسي، تقطع سياق الفيلم من وقت لآخر، حينما يشعر الموجودون في المستشفى أو في "الكهف" بالفزع مع اهتزاز الجدران. وصحيح أننا نرى الكثير من المناظر المؤلمة للأطفال المصابين أو الذين يفقدون حياتهم، ونرى انعكاس المأساة على آبائهم الذين يبكون فقدانهم، ويلعنون تلك الحرب القذرة.

إلا أن الفيلم يظل أساسا، عبارة عن بورتريه شخصي للدكتورة أماني، التي تروي كيف اختارت أن تنتمي إلى هذا النوع من العمل بحيث أصبحت حياتها تدور حوله، لا تستطيع فراق الأطفال، ولا تستجيب أبدا لنداءات والدها الذي يخاطبها بين حين وآخر، عبر الاتصال التليفوني بواسطة شبكة الإنترنت، يطالبها بالعودة إلى كنف الأسرة في دمشق، ويبدي خوفه عليها، لكنه سيعود فيما بعد، مع استمرار أماني في الصمود حتى النهاية، لكي يثني عليها في رسالة صوتية يبعث بها إليها، ويفخر بما فعلته وقدمته وبأنها أصبحت مثالا عظيما يحتذى.

رغم أن قصة أماني هي قلب الفيلم وروحه كنموذج لما يمكن أن تقدّمه المرأة في زمن الحرب، إلا أن الفيلم يكتفي، كعادة هذا النوع من الأفلام، وكما رأينا في فيلم "إلى سما" الذي يصوّر يوميات المخرجة وعد الخطيب في حلب (سبق تناوله في "العرب")، بتقديم صورة أحادية لشخصية ما، دون أن يحقّق ويتحقّق ممّا يسوقه من معلومات، ففي سياق فيلمنا هذا على سبيل المثال، يجري الحديث عن تعرض المنطقة للقصف بالغازات السامة، ويبدأ الجميع داخل الكهف في ارتداء الأقنعة الواقعية. ويقول الطبيب إن رائحة غاز الكلورين انتشرت في الجو، وإنه يشم رائحته في ملابس الأطفال الذين بدؤوا يتوافدون على المستشفى..

ولكن دون أن يقدّم الفيلم دليلا علميا ملموسا على استخدام السلاح الكيماوي، ولو من خلال تشريح إحدى الجثث. والمعروف طبعا أن موضوع القصف بالغازات السامة كان قد ذاع في وسائل الإعلام ونفته السلطات السورية. ظل الموضوع محل جدل.

أحادية النظرة تجعل الفيلم ينتمي الى أفلام الدعاية المضادة لإعلام النظام، وتصوير الوجه الإنساني للضحايا، لكنه مثلما كان فيلم "إلى سما"، يظهر وكأن النظام السوري يحارب أشباحا، فليست هناك كلمة واحدة عن الأطراف الأخرى التي تسيطر على المنطقة، والتي تضمن استمرار الإنترنت والتيار الكهربائي الذي ينقطع أحيانا، كما نرى، لكنه موجود في معظم الأحيان. هل هم ثوار مدنيون أم منظمات مسلحة تسليحا ثقيلا لديها أجندتها الخاصة؟

من دون توفر التيار الكهربائي ليس من الممكن إجراء العمليات، التي يقوم بها جراح متطوّع يبدو أيضا ساهما وحزينا تتركز الكاميرا كثيرا على وجهه في لحظات الشعور بالإرهاق والحزن. هذا الطبيب يلجأ إلى تهدئة أعصاب زملائه من العاملين في المستشفى وداخل غرفة العمليات، عن طريق تشغيل الموسيقى الكلاسيكية وعروض الباليه، على شاشة هاتفه المحمول، بل نراه في أحد المشاهد يشرح جماليات الباليه للمرأة التي تقوم بطهي الطعام أو المتوفر من الطعام؛ الأرز الذي لا ينضج تماما بسبب ضعف نيران الموقد الصغير، أو الفيشار الذي يوزّعونه على الجميع في الاحتفال بعيد ميلاد الطبيبة أماني، ولكن الحفل ينفضّ فجأة بسبب غارة جوية تجعل الجدران تهتزّ بشكل منذر بالخطر.

أين الطرف الآخر؟

ما هو إذن الطرف الآخر الذي يدفع النظام إلى كل هذا القصف والتدمير المجنون، وهل تختبئ عناصر هذا التيار بين المدنيين، وهل يمثل قوة تتطلع إلى الحرية التي تنشدها أماني أم أنه يسعى إلى إقامة مشروعه الخاص الذي سيضمن أيضا قهر المرأة ومنعها بالقوة من ممارسة أي عمل، بل ويحظر تعليم الفتيات؟ ولماذا تتعايش هذه المجموعة من المدنيين مع هذه الجماعات وتتلقى منها الدعم والمساعدة؟ والمعروف أن جماعة جيش الإسلام وفيلق الرحمان كانتا تحتلان المنطقة.

وليس مفهوما لماذا تتجنب مثل هذه الأفلام التي تصوّر الصمود الإنساني، تحقيق التوازن بين الأطراف المختلفة، وتصرّ على تصوير ما يحدث من طرف واحد فقط! صحيح أن الضحايا هم الموضوع الأساسي للفيلم، لكن هل هم ضحايا لطرفين متصارعين أم لطرف واحد فقط؟

> الفيلم لا يهتم كثيرا بالتركيز على «حالة الحصار» بشكل عام، لكنه يركز على تجربة شديدة الخصوصية في المقاومة

ممّا يلفت النظر في الفيلم أيضا استخدام التمثيل أو إعادة محاكاة الحياة اليومية، خاصة في المشاهد التي تظهر فيها الدكتورة أماني، مع استخدام صوتها من خارج الصورة، وهي تروي وتشرح وتعبّر عن مشاعرها وأمانيها وآلامها عبر شريط صوت، لا شك أنه خضع جيدا للمونتاج بصورة مختارة لكي يكون بديلا عن التعليق الصوتي التقليدي المباشر ولكي يعمّق من تأثير الصورة، إلا أن "التمثيل" وإعادة المعايشة أمام الكاميرا يقلّلان من قيمة الوثيقة الملتقطة مباشرة من قلب الواقع.

من ناحية البناء، يعاني الفيلم من التفكك وغياب الخيط الذي كان يمكن أن يجمع بين الشخصيات المختلفة، مع الاكتفاء برصد بعض ردود الفعل، وتصوير بعض المواقف الطريفة مثل طهي كمية كبيرة من الأرز لا يستطيع الأطباء الانتظار حتى تنتهي بسبب شعورهم بالجوع، وكيف تبث أماني روح الأمل في نفوس الأطفال بالحديث معهم عن ضرورة أن نصبح "مهمين" بأن نفعل شيئا كبيرا في الحياة.. إلخ.

غياب البنيان المتين

لا يوجد اهتمام بالقبض بقوة على الموضوع، والانتقال المحسوب جيدا بين الداخل والخارج، وبين العام والخاص، وبين المرضى والمصابين والأطباء وسكان المدينة. كما يغيب أيضا تسليط الضوء على باقي فريق العمل في المستشفى بنفس الاهتمام بالطبيبة أماني. وينتهي الفيلم بخروج الجميع من سوريا طبقا للاتفاق مع السلطة، لإخراج المحاصرين ودخول القوات إلى المدينة. ونعرف من خلال ما يظهر من كتابة على الشاشة أن أماني ذهبت مع زملائها، وأنهم يعيشون جميعا، حاليا، في مكان ما في المهجر.

لا تغني قوة الجانب الإنساني في الفيلم، عن غياب العمود الفقري للفيلم، أي البناء المتقن المتماسك الذي يمتلك القدرة على استخراج الشعر من لحظات الألم، وهو عيب هذا النوع من الأفلام التي تصنع لغرض محدد؛ هو تحقيق الصدمة لدى الجمهور في الغرب.

ويبقى المرء مندهشا، يتساءل في نهاية الفيلم، كيف استطاع فراس فياض، مثلا، تسخير طائرة مروحية صوّر منها ذلك المشهد الهائل لحجم الدمار الذي حل بالمنطقة؟ وكيف سمح له بالتحليق في الأجواء لتصوير المشهد مع مصوّر فيلمه؟ في حين كان الآخرون جميعا يختبؤون داخل "الكهف"!

«آدم» يفتح جرح الأمهات العازبات في المغرب بشاعرية سينمائية

صابر بن عامر
صحافي تونسي

تونس – تشارك المخرجة المغربية مريم التوزاني بفيلم "آدم" ضمن المسابقة الرسمية للأفلام الروائية الطويلة لمهرجان أيام قرطاج السينمائية في دورته الثلاثين، التي تختتم السبت، وهو أول فيلم طويل لها بعد أفلامها القصيرة "عندما يناموا" (إنتاج 2011) و"مافي بو" (2014) و"آية والبحر" (2015)، والعمل الجديد من إنتاج زوجها المخرج والمنتج نبيل عيوش.

وينطلق فيلم "آدم" من الفضاء العام، أحد الأحياء الشعبية لمدينة الدار البيضاء المغربية، ليستعرض مشاهد للبطلة المنبوذة من المجتمع "سامية" (قامت بالدور نسرين الراضي) وهي تطرق أبواب منازل الحي طلبا للعمل، فتواجه في كل مرة بالرفض وهي الحامل بثمرة الخطيئة، نتيجة علاقة حميمية خارج إطار الزواج. الأمر الذي جعلها تهرب من أفراد أسرتها درءا للعار الذي سيلحقهم ويلحقها.

وفي أثناء محاولات سامية اللاهثة لمكان يأويها، تجد ضالتها في "عبلة" (قامت بالدور لبنى أزبال) تلك الأرملة التي فقدت زوجها في حادث سير، وتُعيل ابنة وحيدة اسمها "وردة".

> مريم التوزاني تمكّنت من خلال فيلم «آدم» أن تُعالج بالرمز، والصمت إشكالية الأمهات العازبات في مجتمع ذكوري حتى النخاع

تتقاطع العلاقة بين المرأتين بعد أن ترأف عبلة لحال سامية المأسوي، فتأويها لأيام معدودات، بعد أن وجدتها ذات ليلة نائمة في العراء قبالة منزلها.

من هناك يتحوّل الفضاء الخارجي (الشارع) إلى فضاء داخلي (بيت عبلة ومتجرها الصغير) لتتكشف العديد من الخبايا في حياة كل من سامية وعبلة.

وردة، تلك الصغيرة التي أسمتها أمها عبلة بذاك الاسم، لتعلّقها الشديد بأغنية "بتونّس بيك" للفنانة وردة الجزائرية، وهي التي لم تستأنس أحدا عدا ابنتها، منذ رحيل زوجها، ولم تعرف الابتسامة طريقا إلى محيّاها، حتى اقتحمت سامية حياتها لتتطور العلاقة بينهما بالتدرّج من التباعد والنفور إلى التعاطف، ثم إلى الصداقة الجميلة.

ومع وضع سامية لمولودها "آدم" الذي لم تقبل وجوده بادئ الأمر، يصبح هذا الضيف الجديد على عائلة متكوّنة من ثلاثة نساء (عبلة وسامية والصغيرة وردة)، هو، الحامي ربما، للثالوث في مجتمع ذكوري حتى النخاع.

مجتمع رفض سامية وخطيئتها ويرى في الأرملة عبلة مصدر لذّة لمن استطاع إليها حيلة، وهي الباسلة في الذود عن شرفها وشرف ابنتها وضيفتها أيضا، وإن تجلّى ذلك بالتلميح لا بالتصريح من خلال استكانتها في بيتها، ذاك الفضاء المُغلق، الذي تحوّل إلى مساحة للحلم والفرح رغم قسوة الذات والآخر.

مريم التوزاني تمكّنت من خلال فيلم "آدم" أن تُعالج بالرمز، والصمت، في فضاء مُغلق، إشكالية الأمهات العازبات في المغرب بشاعرية سينمائية، لتطرح دون الكثير من الثرثرة الحوارية ما يعنيه هذا الموضوع المسكوت عنه من مفارقات في مجتمع ذكوري لم يتمكّن بعد من النظر إلى مشاكله بالشجاعة الكافية. مجتمع تعوّد أن تؤدّي فيه المرأة ضريبة تنصّل الرجل من مسؤولياته، لكنّ عاطفة الصداقة التي تشكّلت بين المرأتين جعلتهما يفتحان نوافذ جديدة للأمل والسعادة بعيدا عن غطرسة الرجل وتسلّطه.

من النفور إلى التعاطف

وينافس فيلم "آدم" على الجوائز الكبرى لأيام قرطاج السينمائية في دورتها الثلاثين، أمام كل من الفيلمين الجزائريين "أبو ليلى" لأمين سيدي بومدين و"بابيشا" لمنيرة مدور، والفيلم المصري "بعلم الوصول" لهشام صقر، والفيلم السوري "نجمة الصبح" لجود سعد، والفيلم العراقي "شارع حيفا" لمهند حيال، و"سيدة البحر" للمخرجة السعودية شهد أمين، و"ستموت في العشرين" لمخرجه السوداني أمجد أبوالعلاء والفيلم السنغالي "أتلانتيك" لماتي ديوب، إضافة إلى ثلاثة أفلام تونسية، وهي "بيك نعيش" لمهدي برصاوي و"نورا تحلم" لهند بوجمعة و"قيرة" للفاضل الجزيري.